التمثيل الدبلوماسي في الجزائر خلال العهد العثماني في ضوء فرمانات العثمانية

أ.د. صحراوي عبد القادر

جامعة سيدي بلعباس.

البريد الإلكتروني: sahraoui1959@yahoo.fr

جميل عائشة

طالبة دكتوراه ، جامعة سيدي بلعباس

تاريخ القبول: 2017/02/12

تاريخ الاستلام: 2016/12/15

الملخص:

إن الدبلوماسية الأوروبية في إيالة الجزائر عرفت تنوعا وازدهارا كبيرا من القرن 17 إلى القرن 18م، وذلك راجع لسيادة الإيالة الجزائرية على البحر الأبيض المتوسط، خاصة مع تطور نظام الحكم في عصر الدايات حيث أصبحت الجزائر مستقلة استقلال تاما عن الباب العالي، وتتمتع بسيادة الكاملة أمام ممالك وحكومات عالمية، فاستعملت هذه الدول دبلوماسيين لتمثيلها في الإيالة، فكانوا بمثابة أداة لمعرفة عقلية الحكام والضغط على إيالة الجزائر عن طريق المعاهدات والاتفاقيات التي كانت سببا في إضعاف الجزائر وسقوطها تحت بيد الاحتلال الفرنسي بطريقة سهلة

الكلمات الدالة:

التمثيل الدبلوماسي – الجزائر خلال العهد العثماني – البحر الأبيض المتوسط – الاحتلال الفرنسي – فرمانات العثمانية.

العنوان بالإنجليزية:

Diplomatic representation in Algeria during the Ottoman period in the light
of Ottoman

Abstract:

Between the 17th and the 18 th Century, the european diplomacy and the Algerian one kneur a great diversity and prosperity because of the Algerian

sovereignty on the mediteranean sea in the « deys » era. Algeria became Independent from the «othman» Turkish empire, Et was respected by the Most world politiciens and gouvernements.They linked diplomatic relations just to know to make pressure through a greements which were the main cause to weaken the «Deys». Finally, Algeria was colonised by the french.

Key words:

Diplomatic representation - Algeria during the Ottoman period - Mediterranean - French occupation - Ottoman Fermans

يكتسي موضوع الدبلوماسية والدبلوماسيون في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، أهمية بالغة ولاسيما خلال الفترة الممتدة من القرن 17م إلى 18م في مجال البحث التاريخي، وفي السياسة الخارجية للبلاد والعلاقات الدبلوماسية لإيالة الجزائر مع الدول الأوروبية، هذا ما سيعطي دفعا جديدا لظهور الجزائر كدولة بكيانها السياسي على مسرح الساحة الدولية، خاصة مع تطور نظام الحكم في عصر الدايات، حيث أصبحت الجزائر مستقلة استقلالاً تاماً عن الباب العالي وتتمتع بسيادة الكاملة أمام سياسات وحكومات عالمية، فكانت تعلن الحرب وتمضي السلم وتتعقد معها المعاهدات وتقيم التحالفات بمطلق سيادتها وحرية تصرفها، حيث أصبحت الدول الأوروبية تتعامل معها على اعتبارها كياناً سياسياً مستقلاً، مما ألزمها إرسال دبلوماسيون لحماية مصالحها وتمثيلها في الإيالة.

❖ طبيعة العلاقات الجزائرية الأوروبية:

1- سيادة الجزائر:

يعود ظهور الجزائر الحديثة في الإطار الإقليمي الذي هو عليه الآن تقريبا، خاصة بالنسبة لحدودها الشرقية والغربية، إلى منتصف الأول من القرن السادس عشر، وبالرغم من انضمامها للإمبراطورية العثمانية لكن طبيعة علاقاتها مع هذه الإمبراطورية قد اكتسب منذ البداية طابعا خاصا ميزها عن كونها مجرد إقليم أو ولاية من ولايات الإمبراطورية وبحكم هذه الميزة كان عليها أن تضبط علاقاتها

الخارجية منذ البداية وفق ما تقتضيه مصالحها وظروفها الخاصة بها.¹ وإن علاقات الجزائر الخارجية تندرج ضمن ثلاثة أصناف عريضة تلك التي مع دول المغرب المجاورة، والعلاقات الجزائرية الأوروبية والعلاقات مع الدولة العثمانية، ففي الحالتين الأولى والثانية كان الهدف الجزائري الأساسي واحدا يتمثل في القضاء على أي تجمع أو تحالف قوي بدرجة تؤدي إلى القضاء على الإيالة أو تهديد أمنها الداخلي.²

2- علاقات الجزائر بالدول الأوروبية:

كانت الجزائر أقوى دول المغرب الإسلامي بسبب كبر مساحتها وطول سواحلها، وعناها الاقتصادي ووفرة تجارتها ورواجها مع الخارج وامتداد دواخلها إلى قلب القارة فيما وراء الصحراء الكبرى، وكانت علاقاتها مع الخارج أوسع مدى وكلمتها أكثر تأثير في السلم والحرب، وأكسبها هذا صفة الزعامة على سائر نيابات المغرب الأخرى، واعترفت دول أوروبا لها بذلك وأخذت تدفع لها الضرائب والهدايا وتهابها وتبرم معها معاهدات السلم والصداقة حتى تتجنب نقمتها وغضبها.³ في هذا يقول دي غرامون: " لقد ظلت الجزائر طيلة ثلاثة قرون رعب النصارية وكارثتها، فلم تنج واحدة من المجموعات الأوروبية من البحارة الجزائريين الجريئين، بل وأخضعت الجزائر زيادة على ذلك لمهانة الضريبة السنوية ثلاثة أرباع أوروبا بل وحتى الولايات المتحدة الأمريكية."⁴

كانت الضريبة هي مفتاح العلاقات الجزائرية الأوروبية و فكانت تدفع الجزية لأنها لم تستطع أو أنها لم تطور سياسة عمل جماعي ضد الجزائر، فكانت الضريبة المدفوعة بمثابة حماية فردية وأيضا امتياز للقوى الأوروبية الصغيرة التي تعتمد في حياتها على التجارة السلمية، وفي مقابل هذا كان الجزائريون يمتنعون عموما من مهاجمة سفن أو موانئ الأمم التي تدفع الجزية، وهذا بالرغم من أنهم ربما يضاعفون قيمة الضرائب المفروضة من سنة إلى سنة على البلدان منفردة أو أنهم يطلبون هدايا أغنى من القناصل الأوروبيين.⁵ ومن أهم الدول التي تدفع الضرائب للجزائر هي الولايات المتحدة الأمريكية

هولندا⁶ والبرتغال والدانمارك، النرويج السويد والدويلات الايطالية تدفع الضريبة كل عامين، أما إسبانيا وفرنسا وانجلترا وسردينيا وهانوفر، والبندقية تدفع هدايا دورية للدايات والباشوات وأعضاء الديوان عند إبرام المعاهدات أو تعيين القناصل لها في الجزائر.⁷ ونستني من الدول الأوروبية روسيا والنمسا⁸ اللتين كانتا تعتبران الايالة مقاطعة عثمانية وعليه كانت تجبران الباب العالي على التدخل لمنع البحارة الجزائريين من الاعتداء على أساطيلها.⁹

لقد كانت السياسة الجزائرية الخارجية مرنة وتصورية، واتسمت بالاعتناق المطلق بالتفوق البحري والاعتقاد بدوام الدولة كعامل حيوي في سياسة أمة الإسلام، مع الفهم العميق لمخاوف ومطامح ومناهضات أوروبا المسيحية. فكانت الدبلوماسية الجزائرية بالنسبة إلى الخارج تقوم على مبدئين أساسيين: الأول كل دولة تعتبر محاربة حتى توقع معاهدة صداقة وسلام مع الجزائر، والثاني كل معاهدة لا يعترف فيها بسيادة الجزائر على هذا البحر الأبيض المتوسط فهي مرفوضة وملغاة من طرف الجزائر،¹⁰ ولقد اعتمدت العلاقات الخارجية للإيالة على مايلي:

- منع أي تحالف دول أوروبا ضد الجزائر وذلك بتنظيم المطالبة بالإتاوات والمعاملة الحسنة للأسرى حسب جنسياتهم.

- الاقتناع بالتفوق البحري والتأكد من أن بقاء الإيالة مقرون بمواصلة نشاط البحرية ضد الخطر الأوربي المسيحي، والاقتناع بأن قوة هذه البحرية ستفشل كل المحاولات لاحتلال الجزائر.¹¹

ومن الصعب الإقرار بوجود آلة دبلوماسية جزائرية على غرار ما كان في أوروبا حيث كانت هذه المؤسسة تعكس مظهرها من مظاهر حيوية الدولة وطموحاتها، في حين كانت السفارة في الجزائر تندرج ضمن منطلق إسلامي معهود في تاريخه لرحلة، أي القيام بسفر إلى دولة أجنبية من أجل قضاء أمر ما فهي عمل مؤقت وبأمر رسمي.¹²

3- التمثيل الدبلوماسي الأجنبي في الايالة:

شكلت الدبلوماسية العنصر الأساسي والفعال في محاولات أوروبا اكتساح العالم، وكانت الجزائر من الدول التي ارتبطت قديما بعلاقات متنوعة مع الدول الأجنبية لدرجة جعلت الدايات يرون في كثافة العلاقات وتنوعها مؤشرا لعظمة الجزائر وعزتها.¹³

أ- مبادئ الدبلوماسية الجزائرية في العصر الحديث (من القرن 16 حتى 1830):

إن طرح موضوع الدبلوماسية¹⁴ الجزائرية ومبادئها قبل عام 1830م قد يثير نوعا من التحفظ وربما حتى الارتباك، لأننا تعودنا أنه لم يكن للجزائر كدولة قبل عام 1962م، ووعيا منا بهذا القلق المشروع في ظل النظرة الخاطئة السائدة عن تاريخ الجزائر في العصر الحديث وتفهما منا للارتباك الذي قد يحدثه التطرق لموضوعات مثل هاته، في الفترة التي رغم قربها الزمني إلا أنها غير واضحة بسبب قلة المعلومات التي لنا عنها وسطحيتها.¹⁵

فقليلة هي الأدبيات التي اهتمت بموضوع الدبلوماسية في الجزائر ماعدا محاولات قليلة ومحدودة جدا، وذلك من خلال قراءات في تأليف ومراسلات رسمية أوروبية وأمريكية، والملاحظ أن علاقات الجزائر بالعالم الإسلامي محدودة وتحتاج إلى الاهتمام لما تضمنه من مصلحة البلاد، وأما علاقتها بالأجانب فإنها تتغلب عليها المجاملات والشكليات، ومن خلال هذه القراءات والمراسلات الرسمية يتبين أن الداي يظل المنشط الأساسي للدبلوماسية الجزائرية وكان يستعين في تحريكها بخدام له يبعثهم إلى البلدان التي يريد الاتصال بها وعرفوا باسم السفراء، والملاحظ أن الجزائر لم تهتم بتعيين سفراء لتمثيلها عند ملوك أوروبا على أساس أن يقيموا عند هؤلاء لمدة طويلة بل كان يرسل مبعوثين عنه لفترات قصيرة جدا في مهام مضبوطة، وغالبا ما كان هؤلاء السفراء يستعينون في رحلاتهم بخدمات القناصل المعتمدين في الجزائر أو التجار الأجانب بالإضافة إلى أهل الذمة، واعتادوا التنقل في السفن الأوربية، وهكذا كانت هذه السفارات تذهب إلى أوروبا في جو رسمي في الداخل والخارج، وعند وصولهم يجدون برامج تحركاتهم مسطرة ومضبوطة ينتقلون من مكان إلى آخر وفق ما رسمته الدولة المضيفة، ومن ثم ظلت معرفتهم بهذه المجتمعات سطحية، ولاسيما أن تكوينهم ظل معتمد على المألوف والتجربة.¹⁶

من مكانة الجزائر في البحر المتوسط يمكن أن نستشف المبادئ الدبلوماسية¹⁷ من خلال علاقات الجزائر بالدول الأوربية دون غيرها، وبالرغم من أن الجزائر لها علاقات مع أطراف إسلامية سواء في

منطقة المغرب أو في المشرق الإسلامي.¹⁸ سنحاول استنتاج مبادئ هذه الدبلوماسية اعتمادا على ما سجلته المراسلات الدبلوماسية والمعاهدات المبرمة مع الدول الأوروبية المختلفة:

(1) التعاقد المباشر مع كل دولة تريد إقامة علاقات مع الجزائر: وهذا يظهر جليا من خلال العلاقات الجزائرية الفرنسية، فقد تأكد موقف الجزائر بخصوص العلاقات العثمانية الفرنسية في مبدئين أساسين أولهما: إصرارها على عدم الاعتراف وبالتالي عدم تطبيق المعاهدات التي تبرمها الدولة العثمانية مع الأطراف الأخرى، والثاني يتمثل في المطالبة بالتعاقد المباشر مع كل دولة تريد إقامة علاقات مع الجزائر، وهذا المبدأ الذي سارت عليه الجزائر وتمكنت به بكل إصرار، هو الذي أجبر فرنسا في النهاية إلى الدخول في التعامل المباشر معها وضبط علاقاتها وفقا للترتيبات التي حددها الطرفان ووقعا عليها.¹⁹

(2) مبدأ المعاملة بالمثل وتكافؤ المصالح بين الطرفين المتعاقدين: ففي بعض الأحيان يتم التنصيص بذلك صراحة وأحيانا أخرى يترك ضمنا وعدم التنصيص كان مثار خلاف في بعض الأحيان، خاصة لما يكون الطرف الآخر من المتمسكين بحرية النصوص دون مراعاة التوازن العام لترتيبات التعاقد.

(3) عدم الربط والخلط بين العلاقات السياسية بين الدولتين والنشاط التجاري: الذي يقوم به رعايا الطرفين في كلا البلدين ملزمة نفسها باحترام وحماية هؤلاء الرعايا وممتلكاتهم حتى وإن كانت في حالة حرب مع دولهم.²⁰ ويعتبر هذا المبدأ حجر الزاوية في الدبلوماسية الجزائرية، وقد تم التنصيص عليه صراحة في المعاهدات التي أبرمتها مع فرنسا "إننا لا نقر الخلط بين أمور التجارة وشؤون الدولة".²¹

(4) مراعاة مقاييس وشروط في تعيين القناصل لاعتمادهم في البلاد: لقد أكد المسؤولون الجزائريون في العديد من مراسلاتهم مع الأطراف الأوروبية على ضرورة مراعاة هذا المبدأ والتقيد به عند تعيين القناصل لما في ذلك من مصلحة وفائدة في ترسيخ العلاقات السلمية بين الطرفين بمعزل عن تأثير الأهواء الذاتية والمصالح الشخصية التي لهؤلاء التجار،²² إذ أنها كانت تعتبر أن مصالح الدولة يجب أن توكل إلى أشخاص ليس لهم علاقة بالنشاط التجاري، ويجب أن يكونوا متجربين من كل الدوافع الشخصية أثناء تأدية مهامهم كموظفين وأعاون للدولة.²³

5) مبدأ السيادة الوطنية وحرمتها في تعاملها مع الأطراف الأوربية: أحسن مثل يجسد الحرص على الدفاع على هذا المبدأ هو ذلك الذي يتعلق بقضية المدفعين الذين سرقهما قرصان مسيحي كان في خدمة الأسطول الجزائري، وفر لبيعهما إلى الدوق دي قيز حاكم مقاطعة برونانس الفرنسية، لقد اعتبرت الجزائر أن استرداد هذين المدفعين قضية مبدأ تمس السيادة، فالمدفعين لم يؤخذوا ولم يفتكا منها بالقوة ليعتبرا غنيمة حرب، ولقد رفضت إقرار أي صلح مع فرنسا قبل استردادها، بالرغم من إلحاح الدولة العثمانية من خلال وساطتها لإنهاء الحرب بين الطرفين.²⁴

6) مبدأ الحياد في الصراعات الأوربية: لقد حاولت فرنسا مرارا عديدة وسعت بكل ما أوتيت من أساليب الإقناع والتأثير لجر الجزائر ورائها في الصراعات الأوربية ولكن بدون جدوى، وأخر مسعى بذلته في هذا الاتجاه على عهد لويس الرابع عشر هو إيفادها لبعثة كبيرة عام 1702م لغرض إقناع المسؤولين الجزائريين بالوقوف إلى جانبها في الحرب المرتقبة التي تعرف بحرب الوراثة الاسبانية.

وعند نهاية القرن السابع عشر سجلت الدبلوماسية الجزائرية موقفا على درجة كبيرة من الأهمية وبعد النظر والذي يتمثل في اعتبار منطقة المغرب منطقة متكاملة سياسيا وأمنيا لا يحق لطرف أوربي أي كان أن يتدخل في شؤونها ويقحم نفسه في أمورها، لقد عبرت عن هذا الموقف على إثر اندلاع حرب أهلية في تونس والتي استغلها قنصل فرنسا بهاته البلاد ليتدخل لصالح طرف ضد الطرف الآخر بمداه الأسلحة ويعدد من المرتزقة من الفرنسيين المختصين في المدفعية، لقد ندد الداى شعبان²⁵ في رسالة شديدة اللهجة بعث بها إلى لويس الرابع عشر، بهذا الموقف الفرنسي الذي اعتبره بمثابة إعلان حرب ضد الجزائر، وطالب بأن يكشف عن موقفه بكل صراحة فيما إذا كان يعتبر نفسه في حالة سلم أو حالة حرب، وهو ما اضطر فرنسا إلى شجب موقف قنصلها واعتبار سلوكه عبارة عن مبادرة شخصية وليس موقف الحكومة.

7) مبدأ الوفاء بالعهد والتقييد بالالتزامات التي تعهدت بها: مهما كانت الظروف والتغيرات التي قد تطرأ على الحياة الدولية، فبرغم مما كتبته الأدبيات الصليبية وما سجلته حول عدم وفاء الجزائريين بتعهداتهم، فإن التقارير الدبلوماسية الموضوعية تؤكد دائما هذا الجانب الايجابي في

سلوك دول المغرب البحرية ولدى الكيانات الإسلامية الأخرى والذي تعتبره من الثوابت التي تركز عليها دبلوماسية هذه الدول في كل الظروف وفي جميع الفترات.²⁶

وفي هذا يقول فونتير دي باردي: " يعتبر الوفاء بالعهد من مبادئ الايالة في علاقاتها مع الدول، كما لمعاهدات السلمية والامتيازات، وإن عدم الاعتماد على القوة فقط هو كذلك من المبادئ التي اعتمدها الجزائريون في تنظيم علاقاتهم مع الدول الأوروبية حسب أهميتها..."²⁷

8) مبدأ التعامل مع جميع الدول على قدم المساواة: فليس هناك في منظور الدبلوماسية الجزائرية دولا كبرى ودولا متوسطة ودولا صغيرة، بل جميع الدول تتساوى عندها في المرتبة، وقد تعاملت مع كل الدول على هذا الأساس ويكفي للتأكد من ذلك تصفح المعاهدات التي أبرمتها الجزائر مع فرنسا أو هولندا ومع هامبورق مثلا، فكل لها نفس الامتيازات والالتزامات سواء بالنسبة لوضعية قناصلها بالبلاد أو بالنسبة للتعريف الجمركية التي يدفعها رعاياها هاته الدول من التجار أو بالنسبة للقضاء القنصلي وصلاحياته وغيرها من المسائل.²⁸

ب- سلبيات النشاط الدبلوماسي الجزائري:

إن نشاط الدبلوماسية الجزائرية في العصر الحديث، ليس كله مضيئا فهناك ظلال وعناصر سلبية في هذا النشاط نجمها في النقاط التالية:

- انعدام المبادرة والحركة في نشاط الدبلوماسية الجزائرية حيث نلاحظ عليها أنها التزمت موقفا دفاعيا، فهي لا تطالب بشيء ولا تسعى لتحقيق أي شيء أو أية أهداف سواء أكانت هاته ظرفية أم مرحلية أو أهداف بعيدة المدى.
- انعدام توفر جهاز مختص لمتابعة هذا النشاط وتطويره يشكل حجر ثقل في عمل هذه الدبلوماسية وتخفيض مردوديتها،²⁹ فلم يهتم الديوان بتكوين الأطر التي كان يكلفها بمهمة في البلدان الأجنبية وقد تكون السفراء الجزائريون في مهنتهم عن طريق التجربة والممارسة،³⁰ إلى جانب طغيان النظرة المثالية للعلاقات الدولية التي كانت تسترشد وتستوحي مسلكها من مبدئي "الحق والعدل" الذي نجده على شفاه كل المسؤولين الذين تعاقبوا على السلطة أثناء هذه الحقبة الطويلة.

- التأثير السلبي لقصور وسائل الإعلام والتبليغ المتوفرة لدى الدولة في هذه الفترة، على نشاطها الخارجي والآثار الضارة المترتبة على هذا النقص والذي جعلتها في عجز دائم وقصور مستمر في أن ترقى بنشاطها الخارجي وخاصة في علاقاتها مع الدول الأوروبية إلى مستوى تصور سياسي متكامل يوازن مصالحها وأهدافها وتطلعاتها، على غرار ما وصلت إليه الدول الأوروبية ويبلغ هذا القصور ذروته عندما ندرك أن الخطر الأوربي ضد الجزائر لم يدركه أي أحد.³¹
- انعدام المرونة والفعالية الدبلوماسية الجزائرية ذلك أن أسلوبها المباشر الصريح كان واحدا من العوامل التي مكنت الفرنسيين من عزلها ليس فقط على المستوى الأوربي وإنما حتى مع جيرانها وأشقائها كذلك،³² إضافة أن الجزائريون كانوا يجهلون كثيرا من التحولات العميقة التي شهدتها أوروبا خاصة، مثل أهم حدث هو الثورة الفرنسية التي لم يعيها الجزائريون أية أهمية وبالتالي فإن بعض الكتابات الفرنسية قد ذكرت بأن الجزائريون كانوا يديرون أوجههم اتجاه ما كان يحدث في أوروبا.³³
- لم يهتم الجزائريين بمضمون بنود المعاهدات وكانوا يوقعونها من أجل الحصول على هدايا وفوائد مادية، وذلك على عكس الأوربيين الذين اهتموا ببنود المعاهدات ومن الصعوبات التي كانت تعترض العمل الدبلوماسي الجزائري وتجعله يترك المبادرة فيه لأوروبا، مسألة اللغة التي كانت تحرر بها المعاهدات، ويمكن اعتبار هذا الموقف مؤشرا من المؤشرات التي تبين تجاوز أوروبا للجزائر خلال العصر الحديث، لأنها ستعمل عن طريق تحرير المعاهدات على ضبط مضامين بنودها لتجعل منها الإطار القانوني الذي سيمكنها من تطويق الجزائر ومحاصرة سفنها الجهادية.³⁴
- فمن خلال ما سبق يظهر أن الجزائر لم تكن لها آلة دبلوماسية هادفة إلى تحقيق مصالح متداخلة اقتصاديا وسياسيا من أجل الدفاع عن مصالح الجزائر بل كانت دبلوماسية مندرجة في منطلق ما يراه الداي، وعلى العكس من هذا كانت بلدان أوروبا تستخدم الدبلوماسية لتحقيق أهدافها والعمل على خلق الأسلوب الملائم لهذه، فاهتمت الدول الأوروبية باستعمال الإطار القانوني القادر على محاصرة وتطويق العناصر التي كانت تعارض مصالحها، ولأجل الوصول إلى هذه الغاية لجأت إلى دعم وفرض أسلوب المعاهدات والمهادنة مع الدول الإسلامية بما في ذلك الجزائر خلال العصر الحديث.³⁵

ج- توزيع القنصليات في مدينة الجزائر:

لقد كان الركن الشمالي الغربي من مينة الجزائر حيا خاصا بالقناصل الأجانب فكانت قنصلية فرنسا عام 1808م توجد على بعد ثلاث كيلومترات جنوب مينة الجزائر،³⁶ ثم أصبح مقر عمل القنصل الفرنسي على حوالي ثلاث كيلومترات شمال مينة الجزائر، أما قنصل السويد³⁷ وهولندا واسبانيا والدانمارك فكان مقر إقامته يقع جنوب غرب المينة أي بحي مصطفى الحالي غير بعيد عن قلعة مولاي حسن، وأما قناصل كل من نابل وتوسكانيا وبريطانيا فكانت قنصلياتهم موجودة شمال مينة الجزائر على منحدرات بوزريعة، وعلى بعد 2500م شمال شرق المينة كانت قنصلية الولايات المتحدة موجودة، وأما قنصلية هولندا والحكومة الاسبانية فكانتا موجودتين على نحو 500 و600 جنوب قلعة الإمبراطور حسن علي يمين، ويسار الطريق المؤدية نحو جزيرة سيدي فرج وفي مدخل الأبيار حاليا، وكان لبعض هذه القنصليات الأوربية دور نافذ الخطورة في عملية الاحتلال الفرنسي للجزائر فقد أقيمت بطاريات الملك شارل العاشر 1830م أمام منازل هذه القنصليات إذ اتخذ الجنرال لوفيردو قائد الفرقة الثانية من القنصلية الاسبانية مقرا عاما لقيادته.³⁸

د- دور القناصل³⁹ (السفراء):⁴⁰

• وظيفة القناصل:

حدد الدين جوهر علاقات المسلمين بالأجانب عندما كانت الغلبة لصالح العالم الإسلامي ولم يهتم المسلمون بأوربا لأنها كانت في وضعية لا تخيفهم، فالدبلوماسية الإسلامية لجأت في رأينا إلى تقسيم العالم إلى قسمين: دار الإسلام ودار الحرب وكان المسلمون يستعملون الجهاد كضرورة فرضها القانون والدين، ومن أجل هذا أصبح الغرب لا يرى في الإسلام إلى الحرب والمواجهة،⁴¹ وقد كانت المدن الدويلات الايطالية سبابة في الانضمام بالآلة الدبلوماسية وكانت تحسن استخدامها لتحقيق مصالحها، فالسفارة في أوروبا مؤسسة اقتصادية بالأساس لهذا دعم الأمراء إقامة السفراء في البلدان الأجنبية لأن في استقرارهم مصلحة للبلاد، فاعتمدت أوربا على الآلة الدبلوماسية للتوغل داخل العوالم الأخرى، وكان القنصل أداة لإدراك ذهنية النخبة الحاكمة في هذه البلدان بحكم احتكاكهم بها، فأصبحت أوربا لا تستطيع الاستغناء عن خدمات دبلوماسيتها لأن مصالحها التجارية قد تتوقف.

يبدو مما تقدم أن هذه المؤسسة ما هي إلا أداة استعملتها الدولة الحديثة في أوروبا من أجل التوغل اقتصاديا وسياسيا في البلدان الأخرى، وقد سهرت هذه الدول على تكوين الدبلوماسيين تكوينا يجعلهم قادرون على تحمل هذه المسؤولية القاضية بالتعامل والتفاوض باسم بلدانهم ولصالحها على حساب الآخرون، فشكلت الدبلوماسية العنصر الأساسي والفعال في محاولات أوروبا اكتساح العالم، وكانت الجزائر من البلدان التي ارتبطت قديما بعلاقات متنوعة مع البلدان الأجنبية لدرجة جعلت الدايات يرون في كثافة هذه العلاقات وتنوعها مؤشرا لعظمة الجزائر وعزتها.⁴² التقاليد التي كانت جارية في المغرب هو قبول اعتماد القناصل الأوربيين مع منحهم امتيازات واسعة مثل الحصانة القنصلية والقضاء القنصلي وغيرها، والسلطين العثمانيون لم يغيروا من هذه التقاليد بل أقروها في البداية ثم وسعوها فيما بعد وخاصة بالنسبة لفرنسا منذ معاهدة 1529م.⁴³ وعلى ذلك فليس هناك ما يوحي بالاعتقاد بكون الجزائر ترفض إقامة الأجانب في أراضيها وخاصة إذا كان هؤلاء يقومون بعمل مفيد للطرفين مثل التجارة وتبادل التسهيلات المختلفة والمصالح بينهما،⁴⁴ والدول التي ترتبط بمعاهدات مع الجزائر تحتفظ بعلاقات دبلوماسية معها ويمثلها وكلاء في الإيالة يطلق عليهم لقب (القنصل العام)، وهؤلاء القناصل يتمتعون عادة بنفس الحقوق والامتيازات والحصانة التي يعترف بها الباب العالي للوزراء المفوضين في القسطنطينية، وذلك باستثناء حق اللجوء السياسي الذي لم تعترف به الجزائر قط، ولو أنه وجد بطريقة مشكوك فيها في بعض المناسبات.⁴⁵

كانت العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسا وبعض بلدان أوروبا خاضعة للقوانين المعمول بها فكانت مصالح هذه البلدان محمية في الجزائر يسهر عليها وعلى القائمين بها ممثلون للدول الأوربية أعني بهم القناصل،⁴⁶ ولقد كان الواجب الأساسي للقناصل الأوربيين هو الافتداء المباشر للأسر أو التدخل لدى السلطات الجزائرية نيابة عن المقبوض عليهم من أبناء وطنهم، وكان يساعدهم أعضاء من السلك الديني: مثل الآباء الثلاثيين واليسوعيين وكذلك مختلف الهيئات البروتستانتية التي كانت تقوم بإرسال بعثات إلى مدينة الجزائر لهذا الغرض الخاص⁴⁷ فيقول الأب دان: "في المدينة يوجد قناصل يمثلون الدول وهو مستشار عن الملك وله الحق في نظر في جميع الأمور التي تخص دولته من تجارة وذلك لضمان

مصالحها.⁴⁸ فمهام القناصل كانت حساسة وصعبة فيجب أن يتمتع بشخصية قوية ومعرفة واسعة للعادات وأعراف البلد.⁴⁹

إذا ما حاولنا التعرف على طبيعة وظيفة القنصل في هذه الفترة ونوعية الأشخاص الذين يشغلونها فإننا نلاحظ أن هذا المنصب في فرنسا كان يباع ويشترى كغيره من المناصب الأخرى، بمعنى أنه وظيفة تجارية بالدرجة الأولى، ذلك أنه جرت العادة أن يحصل أحد على وظيفة القنصل⁵⁰ عن طريق شرائها ويفوض غيره للقيام بمهامها واستثمارها في مكان التعيين وصاحب الوظيفة الرسمي مقيما في فرنسا. فكان الدور الأساسي الذي يقوم به القناصل هو حماية المصالح البحرية وسلامة أساطيلهم في البحر ولذلك فإن الدول البحرية الكبرى كانت دائمة التمثيل في الجزائر، وغالبا ما كان قناصلها يتكفلون برعاية مصالح الدول الصغرى التي لا يصل نشاطها البحري إلى درجة اتخاذ قنصل لها في الجزائر، إلا ما كان من أمر النمسا وروسيا فإن هاتين الدولتين رغم نشاطهما البحري الواسع لم تكونا بحاجة إلى اتخاذ قنصل لأنهما كانتا تتعاملان مع الباب العالي رأسا في حالة وقوع أي خلاف مع الجزائر، وهو ما جعل هاتين الدولتين تحترمن من الجزائريين من دون أن تكونا مضطرتين على دفع ضريبة.⁵¹

كان القناصل الأوروبيين يقدمون الهدايا ويدفعون الجزيات باسم دولهم لحكومة الجزائر، فكانت الجزائر تطالب بتبديل القناصل الأوروبيين وعدم بقائهم في مراكز عملهم مدة طويلة حتى يتجدد دخل الخزينة، فكانت الدول الأوروبية ملزمة بتغيير قناصلها كل عام أو عامين، باستثناء الحكومة البريطانية التي يتجدد قنصلها كل خمس سنوات، وأصبحت هذه الهدية تسمى في الفترة الأخيرة للإيالة "هدية السننتين" وفي حالات معينة دفعت الهدية القنصلية وهدية السنين باعتبارهما دينان أحدهما مستقل عن الآخر.⁵³

تزخر مراسلات القناصل⁵⁴ وكتب الرحالة الأوروبيين⁵⁵ وسجلات الدولة الجزائرية⁵⁶ بقوائم طويلة للأتاوات والهدايا القنصلية⁵⁷ ومما يلاحظ أن هذه الإتاوات والهدايا لن تعد في الفترة الأخيرة من حياة الإيالة الجزائرية التزامات مالية تساهم بدخل محترم للخبزينة، بل أصبحت مجرد هدايا دبلوماسية وترضيات مالية تقدم مقابل حرية الملاحة ولنيل الاحتكارات والامتيازات التجارية.⁵⁸

من خلال هذا نستنتج أن العلاقات السياسية الجزائرية مع الخارج في أغلب الفترات التاريخية متوترة بسبب النزعة الصليبية التي شنّها الدول الأوروبية بدافع التوسع والتنصير والتصدي للإسلام بالإضافة إلى الدوافع الاقتصادية، فقابلها الجزائريون بحركة الجهاد في البحر وهذا لم يطور العلاقات ويحسنها في كثير من الأحيان، فكانت سياسة الايالة في علاقاتها الخارجية مع أوروبا هي منع تحالف دول أوروبا ضد الجزائر، وهذا بتنظيم المطالبة بالاتاوات وتحكمت مسألة الأسرى في العلاقات الخارجية مع الدول الأوروبية، لهذا بنت الدول الأوروبية مؤسسات دبلوماسية قوية أصبحت تتخذها سلاحا للتوغل داخل الايالة، فلم تكن قادرة على الاستغناء عن خدمات دبلوماسيها الذين كانوا أداة لإدراك ذهنية النخب الحاكمة وحماية مصالح بلدانهم بها، ومما يسترعي الانتباه هو موقف الايالة من هذه الدول والمبني على أساس الوفاء بالعهود، ولم تكن القوة لوحدها هي اللغة السائدة في العلاقات مع الدول الأوروبية.

ومن خلال قراءات في بعض المؤلفات التي دونها الدبلوماسيون أو الرحالة نلاحظ التشويه والتحريف الذي تعرض له التاريخ الوطني قبل عام 1830م، فوصفت الجزائر بكونها بؤرة لقطاع الطرق وملجأ للقرصان الذين لا هم لهم سوى السلب والنهب وخنق التجارة الدولية وعرقلة قيام علاقة سليمة بين الشعوب، فأغلب المصادر التي تناولت الفترة اعتبرت عبارة عن مستعمرة خاضعة للأتراك، واعتمدت على الهمجية في علاقاتها وعدم تقيدها بالعرف والقانون الدولي، إلى أن عدد المعاهدات والاتفاقيات التي عقدتها إيالة الجزائر تثبتت عكس ذلك.

الهوامش:

¹ .جمال، قنان، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص45.

² .وليم، سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، (تعريب وتعليق: عبد القادر زبادية)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص136.

³ .يحي، بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص52.

⁴ Grammont, (H.D), Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830, édition Leroux, Paris, 1887, p1.

⁵ وليم سبنسر، المرجع السابق، ص 147.

⁶ كانت هولندا أول دولة قامت بتنظيم الغذاء والحماية من الغارات وذلك بدفع إتاوة فاعتبر القناصل الفرنسيون والانكليز هذا العمل مهانة ولكن الهولنديون قرروا أن شراء الحماية أرخص من فرضها بواسطة السفن الحربية. (للمزيد أنظر: جون، ب وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق: أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص218.

⁷ يحيى، بوغيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا (1500-1830)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص22-23.

⁸ ورغم هذه الوساطة فإن البحارة الجزائريين كانوا يستولون على السفن النمساوية. (خط همايون: علية 23، عدد 48827، تاريخ 1230هـ)

⁹ محمد العربي، الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792-1830م، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص43-44.

¹⁰ عبد الرحمان، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ج3، ص262.

¹¹ بن جبور، محمد، صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين 17 و18م، رسالة ماجستير، جامعة وهران، السنة الجامعية 2002-2003، ص103.

¹² علي، تابلت، العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776-1830، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2006-2007، ص89.

¹³ المرجع السابق، ص87.

¹⁴ أصل لفظة دبلوماسية تعني دبلوم أي شهادة رسمية صادرة من الحكام أو الملوك وحاملة لخاتم المصادقة عليها، كما تعني أيضا شيئاً مطويًا على اثنين وتعني مجموعة الوثائق الرسمية أو السرية التي تقيم الحكومات بها صلات فيما بينها على أساسها أو بواسطة ممثليها في الخارج، وتطلق لفظة الدبلوماسية Diplomatie اصطلاحاً على علم علاقات الدول الخارجية وشؤونها الأجنبية هذا مدلول الدبلوماسية الواسع أما مدلولها الضيق فهو فن التفاوض فيما بين الدول وبالتالي فن التعامل الدولي، وأساليب الدبلوماسية وغايتها متنوعة ومتطورة، ولقد كان إبرام المعاهدات بين الدول لا يزال في طليعة هذه الأساليب والدبلوماسيون في هذا المعنى هم الأشخاص المكلفون بنقل "الدبلوماسية" والتاريخ الدبلوماسي يكمن عندئذ في جمع الوثائق الدبلوماسية والتعليق عليها والوثيقة الدبلوماسية وثيقة رسمية أو سرية يستخدمها رجال الدولة للمراسلة بينهم أو مع ممثليهم في الخارج وهو يهتم بوصف تطور العلاقات بين الدول ويرتكز هذا التاريخ على تسلسل المفاوضات وعرض

- الحوادث. (للمزيد أنظر: عمر عبد العزيز، عمر، محمد علي، الفوزي، دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر 1815-1950، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1999، ص15.
- عبد العزيز، جراد، العلاقات الدولية، موقف للنشر، الجزائر، 1992، ص22.
- لويس، دوللو، التاريخ الدبلوماسي، ترجمة: سموحي فوق العادة، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، 1999، ص ص6-7.
- جمال، قنان، المرجع السابق، ص43.
- علي، تابليت، المرجع السابق، ص89.
- وقد استعمل الدكتور "جمال قنان" كلمة الدبلوماسية بدل السياسة الخارجية، لاعتقاده أن نشاط الدبلوماسية الجزائرية خلال هذه القرون الثلاثة لم يرق إلى مستوى يسمح له بإطلاق كلمة السياسة الخارجية على هذا النشاط. (جمال، قنان، المرجع السابق، ص46-47).
- المرجع نفسه، ص44.
- المرجع نفسه، ص46-47.
- المرجع نفسه، ص47-50.
- جمال، قنان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص258.
- جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص48.
- المرجع السابق، ص258.
- المرجع السابق، ص48-49.
- شعبان آغا: امتد حكمه من 1072هـ/1661م إلى 1076هـ/1665م.
- جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص51-52.
- ²⁷ De paradis (v), Alger au XIII siècle 1788-1970, Présentation et notes par Abderaa bmane rebabi, Edition grand Alger livres, Alger, 2006, pp154-155.
- جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص53.
- جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص260.
- علي، تابليت، المرجع السابق، ص90.
- المرجع السابق، ص260.
- جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص56-57.
- محمد، بن جبور، المرجع السابق، ص115.

- ³⁴ علي، تابليت، المرجع السابق، ص300.
- ³⁵ جمال، قنان، قضايا...، المرجع السابق، ص90.
- ³⁶ Esqure, (G), Le commencement d'un empire 1830, Ed la rose, Paris, 1929, pp22-23.
- ³⁷ فذكر حمدان أن قنصل السويد كان يسكن دار للاستحمام وكان ذلك المسكن مجهز بأفخر الأثاث وأواني الفضة وغيرها واستعملها الجنرال بورمون للهجوم على حصن الإمبراطور. (للمزيد أنظر: حمدان، بن عثمان خوجة، المرأة (تعريب وتقديم: محمد العربي الزبييري)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص208).
- ³⁸ محمد، زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791-1830)، رسالة دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 1975-1976، ص ص10-11.
- ³⁹ عرف عبد الرحمان ابن زيدان القنصل بأنه " موظف تعيينه الدول في البلاد الأجنبية...، ولاسيما في الثغور لحماية رعايا دولته والعابرين...وينطق به المغاربة قونصو ويكتب أحيانا قنص." (للمزيد راجع : عبد المجيد، قدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين 15 و18م، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص306).
- ⁴⁰ كلمة سفير في الاصطلاح العربي القديم تعني الرسول، المصطلح بين القوم وجمعها سفراء ويقال سفير بينهم يسفر سفرا وسفارة السفراء نوعان: سفير فوق العادة وسفراء عاديون هم الذين تكون إقامتهم في البلدان التي يعينون فيها لمدة طويلة، وأما الصنف الأول فإنه يكون مكلفا بمهمة مهددة. (للمزيد راجع: عبد المجيد، قدوري، المرجع السابق، ص307).
- ⁴¹ عبد المجيد، قدوري، المرجع السابق، ص309-310.
- ⁴² علي، تابليت، المرجع السابق، ص87-88.
- ⁴³ لا نملك معلومات عن الكيفية التي تمت تسوية هذه المسألة بين الجزائر وفرنسا وإنما يكفي أن نشير أن القنصل الفرنسي بالجزائر لم يمارس في هذه البلاد تلك الصلاحيات وذلك الامتياز الواسع الذي منحتها إياه المعاهدات التي أبرمتها فرنسا مع الدولة العثمانية.
- ⁴⁴ جمال، قنان، معاهدات...، المرجع السابق، ص40.
- ⁴⁵ وليام، شالر، مذكرات وليام شالير قنصل أمريكا في الجزائر 1516-1824، (تقديم وتعليق: إسماعيل العربي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص64.
- ⁴⁶ محمد، زروال، المرجع السابق، ص7.
- ⁴⁷ وليم، سبنسر، المرجع السابق، ص131.
- ⁴⁸ Dan, (P), Op.cit, p93.
- ⁴⁹ Nettement, (M.A), Histoire de la conquête d'Alger, nouvelle édition librairie, Alger, 1867, p81.

⁵⁰ ستطرح الدبلوماسية الجزائرية في مراسلاتهم مع السلطات الفرنسية، قضية عدم وضوح وظيفة القنصل وتداخلها مع النشاط التجاري مبرزة خطورة ذلك على العلاقات بين دولة وأخرى وملحة على ضرورة الفصل بين النشاط الذي يتعلق بخدمة الدولة وذلك الذي يخص المصالح الخصوصية عن طريق تعيين قناصل تكون مهمتهم الوحيدة القيام بخدمة دولتهم في البلدان التي يمثلونها. (أنظر: جمال، قنان، معاهدات... المرجع السابق، ص50).

⁵¹ أحمد، بحري، الحياة الاجتماعية بالجزائر في عهد الدايات 1671-1830، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2001-2002، ص22.

⁵² من الدول الأوربية التي يتغير قنصلها كل سنتين اليونان والسويد والدانمارك وهولندا. (للمزيد أنظر:

- De Paradis, (v), Op.cit, p198

⁵³ وليام، شالر، المصدر السابق، ص65.

⁵⁴ Plantet, (E), Les consuls de France à Alger avant le conquête 1579-1830, Hachette, Paris, 1930, p55.

⁵⁵ مثال شاو- فانتيير دي بارادي- دي بوتانفيل- شالير.

⁵⁶ . مجموعة الوثائق العثمانية.

⁵⁷ . سميت كذلك بالعوائد لما تعود الأجانب على دفعها للولاية.

⁵⁸ Emerit, Marcel, « Le voyage de la condamine à Alger », in R.A, N°98, 1954, p378.